

الفردانية الشبكية والمجتمعية: جدل الحديث والتقليدي

Networked and Societal Individuality: Modern and Traditional Controversy

ط. د. أسامة بخوش

جامعة العربي التبسي- تبسة- الجزائر
bakhouchoussema@gmail.com

ط. د. سليم سهلي¹

جامعة العربي التبسي- تبسة- الجزائر
Salim.sahli@univ-tebessa.dz

تاريخ النشر: 2020/03/30

تاريخ القبول: 2020/03/15

تاريخ الإرسال: 2020/02/25

ملخص

تندرج أطروحة المجتمع الشبكي في نطاق ما يسمى ممارسة العلم، أو للدقة أحد أشكال هذه الممارسة في فضاء مجتمعي مخصوص هو الفضاء الغربي، وقد جاءت هذه الأطروحة استجابة للتطورات المعولمة والمسائل العصرية المستحدثة، وظهور المجتمع الشبكي المفردن، بهياكل جديدة (جماعات افتراضية، التقنية.. الخ)، بدل المجتمع التقليدي الذي يحمل إنتظامات متراصة وهياكل مجتمعية مبنية على العلاقات الإجتماعية الموسعة. الكلمات المفتاحية: الفردانية، المجتمع الشبكي، المجتمع التقليدي.

Abstract

The thesis of the network society falls within the scope of the so-called practice of science, and for accuracy one of the forms of this practice in a special societal space is the western space. This thesis comes in response of the globalized developments and modern emerging issues, in addition to the emergence of the networked individual community out for new structures (virtual groups, technology, etc.) , Instead of the traditional society with monolithic regularities and societal structures based on expanded social relationships.

Key words: Individuality, network society, traditional society.

¹ المؤلف المراسل: سليم سهلي، Salim.sahli@univ-tebessa.dz

مقدمة

حاول بعض من أعلام الفكر الغربي الحديث والمعاصر إخفاء الطبيعة الجوهرية للمجتمعات الرأسمالية في بلدانه فأخذ يروج لأطروحات مختلفة المشارب، تضيي على المجتمع طبيعة أخرى مثل: مجتمع ما بعد الصناعي، مجتمع المعلومات، مجتمع المعرفة، ما بعد الحداثة... الخ؛ لكن بمقابل ذلك هناك بعض الأعلام مما انتقد هذه الأطروحات وأظهر أن مجاراتها للتغيير، لا تخفي ظهور مجتمع جديد قائم على الشبكية المتفرعة، وهذا هو الطرح الجديد الذي يتمثل في مفهوم المجتمع الشبكي، الذي يتميز بخاصيتين:

الأولى: تتبدى في أنه نشأ في المجتمعات التي توجد فيها تقانة معقدة من الاتصال وإدارة وتوزيع المعلومات شبكياً. والثانية: تتجلى في إعادة إنتاج الشبكة ومؤسساتها في كل مكان من المجتمعات الشبكية باعتبارها الشكل الأساس للتنظيمات والعلاقات الإنسانية.

ونظراً لجدة مفهوم المجتمع الشبكي، ولما يلاقيه من رواج كبير جعل العديد من الباحثين والأكاديميين يتساءلون حول تأثير التطور التقني على هياكلنا المجتمعية سواء على الصعيد الجماعي (الجماعات الافتراضية) أو على الصعيد الفردي (الإمام التقني)؛

لكن هذه التأثيرات سوف تبقى في مجملها ذات أبعاد تقنية، إذ إنها لا تمتلك أن تنفذ أبعد من سطح انتظامنا المجتمعي بما هو انتظام ثنائي يتجادل فيه الحديث والتقليدي، حيث يحضر الحديث في التقليدي والتقليدي في الحديث، وإذا كان المجتمع الشبكي قوامه الرقمية وزعزعة التقليدي،

- فهل يمكن أن نفهم الصراع بين المجتمع التقليدي ذو الانتظام المهيكل والمجتمع الشبكي الذي يمتلك هالة رقمية مجسدة؟

وبعبارة أخرى:

- هل يمكن أن نستغني على مفهوم المجتمع بكل تمفصلاته في ظل التطور العولمي؟.

1- المجتمع الشبكي بين النشأة والمفهوم

إن ظهور المجتمع الشبكي بخصائصه التي قادها وطورها مانويل كاستلز أستاذ علم الاجتماع السياسي بجامعة كاليفورنيا والذي يطلق عليه في الغرب وصف "كارل ماركس القرن الواحد والعشرين" وكان له الفضل الأول في تحليل مختلف أبعاد "المجتمع الشبكي" النابع من الثورة الرقمية؛ فأساس هذه التحليلات ارتبط بظهور أسس عصر المعلومات بصورة أوضح نتيجة تطور تكنولوجيا المعلومات التي غيرت بالفعل مظاهر الحياة وزادت من سيطرته على الطبيعة، إلا أن التطورات العلمية فيما بعد أثبتت أن الثورة المعلوماتية بكل ما حققته من إنجازات ما هي إلا جزء من الثورة الرقمية التي شملت عدة مجالات غيرت منجزاتها والعلاقات الاجتماعية والمفاهيم السائدة، وفرضت حقائق سياسية جديدة أكثر واقعية تعبيراً عن السعي لرفاهية الإنسان¹.

كما يمكن القول أن استخدام تكنولوجيا المعلومات في مختلف بلاد العالم أدى إلى تفكير الإنسان في إعادة تنظيم المجتمع بما يناسب هذه التكنولوجيات، مما أدى إلى ظهور المجتمع الشبكي وهو مصطلح كان يطلق على المجتمعات الحديثة التي تؤمن بدور المعلومة ومن ثم إنتاجها ودمجها في العملية الإنتاجية ولا يقتصر دورها على مجرد استخدامها، إلا أن المؤشرات الحديثة تؤكد أن مجرد استهلاك المعلومات غير أدوات التكنولوجيا الحديثة

كان أيضا لإعادة تنظيم المجتمع في صورة شبكية بقدر ما هو كاف لإدماج قطاع كبير نسبيا من السكان في المجتمع العالمي، ومن ثم التعرف على أساليب حياة جديدة والتعرف على المعدلات العالمية .
ومما لا شك فيه أن وصف مجتمع المعلومات الراهن بأنه "مجتمع شبكي" يعد وصفا أساسيا في نظرية مانويل كاستلز، كما أن نشأة المجتمع الشبكي وفقا لكاستيلز نتيجة ظهور تكوينات جديدة حيث تبلورت نشاطات اقتصادية رئيسية أثرت في ظروف مكانية وزمانية وقد اعتمدت عملية إعادة التنظيم على التطبيق التكنولوجي واسع المدى منذ السبعينيات، والذي تمثل في الجمع بين التقنية الحاسوبية والاتصالات .
والنقطة الهامة في تحليل كاستلز أن تكنولوجيا المعلومات تطورت بطريقة مغايرة للتطور التكنولوجي السابق، مما سمح بتشكيل "النمط المعلوماتي للتنمية" وهو نمط يتسم بالمرونة والانتشار والتكامل، بمعنى أنه ليس مجرد إضافة تكنولوجية سابقة .

والمجتمع الشبكي يقوم على أساس اتساع مجال التدفقات الحرة في مجال السلع والأموال والخدمات والأفكار والبشر، وقد أدى هذا الاتساع إلى خلق ثقافة "الافتراضية الحقيقية" والتي تتسم كما يقول كاستلز "بالزمن اللازمي والمكان اللامكاني؛

فالمجتمع الشبكي إذن يقوم على أساس فيضان من التدفقات المتنوعة وهي مرتبطة ارتباطا وثيقا بالقوة؛ حيث يشير كاستيلز إلى أن مجال التدفقات يعكس المنطق المسيطر على المجتمع الشبكي، بعبارة أخرى أن الدولة التي لديها قدرة أكبر على إقرار التدفقات المتنوعة ستصبح أقوى من الدولة التي ليست لديها هذه القوة ومعنى ذلك أنه في ضوء المجتمع الشبكي تغيرت موازين القوى الدولية، وذلك في ضوء الانتقال الذي يتم - ببطء وإن كان بثبات - من مجتمع المعلومات العالمي إلى مجتمع المعرفة حيث ستصبح عملية إنتاج المعرفة أهم العمليات قاطبة في المجتمع الشبكي² وتعتبر الشبكة عبارة عن مجموعة فاعلين، كل منهم يسمى عقدة، متصلين ببعضهم وهذا الاتصال يتم بروابط متعددة ومتداخلة، ويتم تأمين هذا الاتصال بأدوات تكنولوجية.

وقد يطلق على هذا الشكل التنظيمي الشبكية network of lattice أو المصفوفة matrix أو الويب Web وتتحدد أهمية العقد بقدرتها على المساهمة في فاعلية الشبكة لتحقيق أهدافها، أي أنها تتحدد بمدى استيعابها لأكثر تدفق ممكن للمعلومات ومدى قدرتها على إصدار معلومات لأعضاء الشبكة.
فالمعيار هو التفاعل المعلوماتي، وبطبيعة الحال تكون العقد متفاوتة الصلة بالشبكة كما أنها متفاوتة الأهمية لها، ومن ثم يطلق على العقد الهامة مراكز centers ووظيفة العقدة والاتصالات تتحدد في بروتوكول الشبكة ومن ثم تزداد أهمية العقد بزيادة :

أ- استيعابها لمعلومات أكثر ذات صلة بأهداف وقيم ومصالح الشبكة .

ب- معالجتها للمعلومات بصورة أكثر كفاءة .

إذا الشبكات هي بمنزلة شكل جديد للمجتمع تنتظم فيها الهوية السياسية والاقتصادية ومن ثم تحدد شكل المجتمع وقيمه.

- سلطة الشبكة: يقترح كاستيلز أن يتم فهمها من الطرح الذي قدمه جريوال لتنظيم العولمة بمنظوره الشبكي على اعتبار أنها نسق اجتماعي مكون من فاعلين اجتماعيين مرتبطين بشبكة العولمة، حيث أن هذا النسق يفرض معايير معينة وهذه الأخيرة هي مصدر وأساس سلطة الشبكة المتألفة من فكرتين :

أ- المعايير المتناسقة تكون قيمتها أعلى عندما يتم استخدامها من طرف أكبر عدد من الفاعلين الاجتماعي.

ب- هذه السلطة تتخلص من البدائل المقيدة نحو الاختيار الحر الجماعي ومن ثم تفعيل هذا الاختيار .

وفي حالة ضم الشبكة لفاعلين إجتماعيين متعددين ومتباينين تقوم الشبكة بإعطاء الأولوية لحل على الحلول الأخرى المتاحة وإزالة الحلول البديلة .

إذا هذه المعايير أو بروتوكولات الاتصال هي القواعد التي تقبل عضوا بالشبكة لأول مرة عن طريق فرض قواعد الاحتواء استنادا إلى مدى انفتاح الشبكة، وهي مسألة قد تخضع للتفاوض بين عناصر الشبكة نفسها وفور إقرارها تصبح ملزمة لكل عقد الشبكة، ومن ثم فسلطة الشبكة هي سلطة معايير الشبكة على جميع عناصرها رغم أن الشبكة في البداية قامت على حماية مصالح عدد محدود من الفاعلين الإجتماعيين.³

2. المجتمع الشبكي قاعدة مجتمع المعرفة

عبارة المجتمع الشبكي هي من المرادفات القوية لمفهوم مجتمع المعرفة، وقد ولد هذا المفهوم الأخير بدوره مترادفات أخرى ذات صلة بالقطب الذي ينفذ عليه ويستمد منه بعض من مقوماته، ونشير هنا إلى البعد التكنولوجي حيث نعث على مرادفات من قبيل المجتمع الرقمي، إضافة إلى توليده مفاهيم في شأن تشخيص غياب مجتمع المعرفة، مثل الفجوة الرقمية والمجتمع الرقمي والذي يضع بدوره شبكة من المفاهيم الوسيطة، الأمر الذي أنتج مفردات عدة تتعلق بالإحاطة بمتغيرات أقطاب المثلث الصانع لروح عصرنا، عصر المعلومات والانترنت والعوالم الافتراضية والأسواق الإلكترونية والسلع الجديدة... الخ .

وإن قوة مفهوم المجتمع الشبكي يصنعها البعد التكنولوجي وتصنعها القدرة على الاتصال والتواصل في جميع الأوقات ومن دون رقيب وهو الأمر الموصول بالمجتمع إلا أن هذه القوة لا تتجاوز في نظرنا الإحاطة بالوسط في بعده التقني المتطور باستمرار .

وقد صدرت في نهاية القرن الماضي أطروحة مهمة في ثلاثة مجلدات لإيمانويل كاستيلز بعنوان: عصر المعلومات وكان مجلدها الأول عن مجتمع الشبكات، أما العنوان الثاني فكان قوة الهوية، وكان العنوان الثالث نهاية الألفية والتحول الجيوسياسية العالمية والفاعلين الجدد؛ فاعتبر كاستيلز أن السمة الرقمية لمجتمع المعرفة تثير قضايا مركبة، فهي من جهة تعد الخاصية الأكثر إثارة في ثورة المعلومات جراء السهولة التي تستعمل بها الأدوات والتقنيات والبرامج المعلوماتية في الحياة اليومية، ففي عصرنا الموصوف بعصر التكنولوجيا بامتياز تستحوذ المعلومات والمعارف على الأذهان والسلوكيات بصورة تجعل ملاحقتها أمرا متشعبا؛

وقد أوضح تقرير اليونسكو الموسم بعنوان: نحو مجتمعات المعرفة (2005) هذه المسألة باستعارة دالة مشيرة إلى أن صعوبة إيجاد المعلومة الملائمة في الطرق السيارة للمعلومات تعادل <<صعوبة شرب الماء من المضخة المستعملة في إطفاء الحريق، صحيح أن الماء غزير لكن علينا أن نحترس من الغرق>>

وقد عرف كاستيلز الشبكة بأنها << البنية الاجتماعية لعصر المعلومات، عصر المجتمع الشبكي المؤلف من شبكات الإنتاج والقوة والتجربة، حيث تقوم هذه الشبكات بدورها في بناء ثقافة افتراضية في إطار التدفقات المعلومة متجاوزة بذلك مفهومي الزمان والمكان؛ وقد حصل في عصرنا اختراق جميع المجتمعات بالفعل الجارف للمجتمع الشبكي⁴، ومقابل التشبيك المتعولم الذي يعد الظاهرة الأبرز في مجتمع المعرفة تقف الذات التي تشير في نصوص كاستيلز إلى الهويات الفردية والجماعية الهادفة إلى المحافظة على حياتها في خضم التحولات المعرفية الجارفة وينتج التناقض بين الشبكة وبين الذات في نظر كاستيلز صورا جديدة للصراع الاجتماعي، وهو يلج على الطابع المعرفي لهذا الصراع حيث للشبكات بقواعدها الرمزية شأن بارز في تأجيج الملامح الكبرى للصراع الدائر بين العالم اليوم وترتيبها.

ومن هنا جاءت عناية كاستيلز بالأدوات التي تمارسها الحركات الاجتماعية والثقافية الجديدة، ففي هذه الحركات المتنوعة وانهايار المعسكر الإشتراكي وتداعياته المتواصلة، وكذلك تراجع رمزية النظام الأبوي ما يمكن أن ندرجه في سياق التناقضات التي فجرها عصر المعلومات في عالمنا.

وعندما نقبل بتسمية الشبكة نقبل في الوقت نفسه أن تكون التكنولوجيا وتكنولوجيا المعلومات بالذات وراء التنظيم الاجتماعي، وتصبح الرأسمالية المعلوماتية بتغييرات كاستيلز هي البديل مما كان يسميه ماركس في القرن التاسع عشر الرأسمالية الصناعية، ويمكننا مفهوم الشبكة بفعل دلالاته المفتوحة والمؤسسة على قاعدة الثورة التكنولوجية في مجال المعلومات من تبين العناصر المرفقة به، ويتعلق الأمر من الناحية التكنولوجية بمجموعة من البنى التحتية التي تضمن رواج التدفقات وتوزيعها.

ومن وجهة النظر الإقتصادية تمثل الشبكة نموذجاً لأقسام التكلفة بين مجموعة من المستعملين ويمكن من خلق تكامل الطاقات، بينما يشكل المستوى الاجتماعي نظاماً علائقياً وتفاعلياً بين الأفراد المكونين للشبكة؛ أما الإنترنت (شبكة الشبكات) فإنه يمثل في هذا السياق الأداة الأولى الوسائطية في الإعلام الدولي.

وتتميز أفعال التكنولوجيا بكونها تشكل اليوم أضخم سجل للمعلومات المرجعية في مختلف مجالات المعرفة، إضافة إلى أن شبكتها توفر إمكانيات تفاعلية داخل أنسجة المجتمع تتوسطها آليات أو تقانات رقمية سريعة، وقد ترتب على ما سبق أن المكان في مجتمع الشبكات أصبح عبارة عن تدفقات أي انه ليس مكاناً فيزيقياً، كما أصبح الزمان بحسب كاستيلز هو اللامزمان وصار غير موصول بالساعة المرتبطة بدورها بعصر الصناعة.. إنه في مجتمع الشبكات عبارة عن آنية تسمح لنا بالوجود في أمكنة عدة في الوقت نفسه وإن تدفقات رؤوس الأموال وفيض المعلومات لا علاقة لها اليوم بمكان بعينه فقط إنها في اللامكان المرادف لكل زمان.⁵

3. نحو تحديد خصائص الوجود الافتراضي في الفضاء الشبكي

لا يتأتى للفرد التواجد في المجتمع الافتراضي الشبكي إلا من خلال التحامه بالعناصر التكنولوجية التي عليه أن يألفها ويتحكم في مجرياتها أحسن تحكم حتى يضمن فاعلية تواصله مع الآخرين في هذا الفضاء.

يعتبر الفاعل في المجتمع الرقمي ذاتا (هوية) افتراضية مرقمنة (مبرمجة آلياً) فهو مركب رقمي لا جسد له، وقد يتخذ شكل رمز أيقوني أو شيفرة متميزة قد تتخذ شكل صورة أو رمزا للإشارة إلى هويته الرقمية التي تصبح رمز التفاعل والتواصل في الفضاء الافتراضي الشبكي.

للإنسان والحاسوب (التقانة بشكل عام) مظهرات معينة في المجتمع الشبكي تحكمها قواعد مغايرة تتجاوز نسقية النظم الاجتماعية المنظمة للحياة الجمعية والثقافية في الواقع، وان كانت الذات الافتراضية تساهم عبر خياراتها وتفاعلاتها في إعادة بعثها عبر المجتمع الافتراضي الشبكي.

يتخذ التواصل في المجتمع الشبكي الطابع المتزامن الذي يفترض الحضور الآني لأطراف التواصل أو اللامتزامن الذي يفترض الغياب الفيزيقي لأطراف التفاعل زمن التواصل، الأمر الذي يؤثر في مجرى العلاقات الافتراضية في المجتمع الشبكي التي تتخذ طابعاً خاصاً يختلف عن محداداتها في الواقع.

يتمثل كيان الفرد في الفضاء الافتراضي الشبكي من خلال الآثار الرقمية التي تخلقها عمليات التواصل والتي تبرز في تلك الرموز التجريدية التي تتنوع أشكالها باختلاف الشبكات الافتراضية التي يشترك فيها مثل: نعم/لا، الفتح/الغلق، الوصل والفصل، الإعجاب، المشاركة، التعليق... الخ.

تتخذ لغة التواصل في المجتمع الافتراضي طابعاً مميزاً يجمع بين الكلمة، الرمز، الأيقونة، الوجوه، الصورة وغيرها، والتي قد يجري التلاعب برمزياتها وبناء معانيها سعياً إلى خلق خصوصية الأثر في ضوء ديناميكية الجماعات الافتراضية وبلورة الوجود الرقمي في المجتمع الشبكي.

من هنا تجدر بنا الإشارة إلى التحديات التي تواجهها اللغة في ظل المجتمع الشبكي، وبخاصة أن منطق التواصل الافتراضي عن طريق اللغة المكتوبة المعبرة عن الردود الفورية السريعة الممزوجة بالمشاعر والانفعالات كما تتطلب استخدام مختصرات بحروف لاتينية أو عربية أو المزج بينها أو أقنونات معبرة عن ذلك، ولاشك في أن مثل هذه الممارسات اللغوية المعتمدة في المجتمع الافتراضي الشبكي تعكس التحديات التي تواجهها الهوية في المجتمعات العالمية وتأثير تكنولوجيا المعلومات في نمط حياتنا المعاصرة.⁶ ويمكن إجمال خصائص النظرية الشبكية لفهم حركتها في المجتمع وتأثيرها عليه في مايلي:⁷

أ- كلما زاد تفاعل العقدة مع الشبكة زادت أهميتها لأن التفاعل يعكس تزايد المعلومات لدى العقدة.
ب- العقدة تكتسب أهميتها للشبكة من قدرتها على تحقيق أهداف الشبكة، ومن ثم ففي حالة فقد هذه الأهمية فإن الشبكة تعيد تشكيل نفسها بإقصاء هذه العقدة، فالشبكة هي الوحدة للمجتمع وليس العقدة.

ت- الشبكات ليست إلا هياكل اتصالية في الحياة الاجتماعية، تتكون من خلال تدفق الرسائل بالقوائم بالاتصال عبر الزمان والمكان (أي عبر المجتمع)، فالشبكات تعالج تدفقات المعلومات بين العقد فتحدد طبيعة الشبكة وأهدافها وقواعد أدائها. ويمثل الفاعلون الاجتماعيون (العقد) مصدرا لتشكيل وبرمجة الشبكات، ولكن ما إن تتشكل الشبكة فإنها تتبع التعليمات المنصوص عليها في نظام تشغيلها وتصبح قادرة على التشكيل الذاتي ومن ثم لتغيير مخرجات الشبكة يتعين وضع برنامج جديد لها في نظام تشغيلها.

ث- الشبكات المختلفة تتعاون أو تتنافس مع بعضها :
■ التعاون بين الشبكات يعني القدرة على الاتصال بين الشبكات. وتتوقف هذه القدرة على وجود برامج للترجمة والعمل بين الشبكات (بروتوكول الاتصال).
■ المنافسة بين الشبكات تعني القدرة على تجاوز الشبكات الأخرى في الأداء أو في القدرة على التعاون جميع الشبكات تعمل على أساس منطق ثنائي: الاحتواء والإقصاء.

فالمسافة بين العقد داخل الشبكة الواحدة تميل الصفر لأن كل عقدة متصلة بالعقد الأخرى داخل الشبكة بصورة مباشرة والتفاعل معها يتم بوضعية إلكترونية، أما المسافة بين العقد داخل شبكة ما والعقد خارج هذه الشبكة فإنها لا نهائية لأنه لا يوجد أدنى اتصال بينهم ما لم نغير برنامج الشبكة.

ج- الشبكات أصبحت أكثر الصيغ التنظيمية كفاءة نتيجة ثلاثة ملامح رئيسية هامة :
■ المرونة: أي إعادة التشكيل وفقا للبيئات المتغيرة والتمسك بالأهداف مع تغيير عناصرها.
■ الإنتاج الكبير: القدرة على التوسع أو الانكماش في الحجم.
■ القدرة على البقاء: أي القدرة على الاستمرار والصمود أمام الهجمات على الشبكة وعقدتها.

4. الفردنة الشبكية والانتظام المجتمعي

في المساق ما بعد الحداثي تغلبت الفردانية، على سوسيولوجيا الأنساق أو النظريات الكبرى، وتجسدت هذه الرؤيا في الدراسات المعاصرة حيث لقيت رواجاً واسعاً في الأوساط الأكاديمية والثقافية بعامة، وتعد الفردانية "خاصية مميزة للمجتمعات الحديثة الذي يعتبر الفرد فيها الوحدة المرجعية الأساسية، وهو الذي يقرر مهنته ويختار قرينه وهو يتحمل بحرية تامة ومسؤولية معتقداته وآرائه وأفعاله، كما أن استقلاله الذاتي أكبر مما هو عليه في المجتمعات التقليدية"⁸ ، والفرد الخاصية المرجعية الذي له نظامه الخاص وهو الذي يقرر كافة أمور

حياته وفق إرادته بعيدا عن تدخل الآخرين، أي أنه فاعل مستقل بذاته عكس المضامين التقليدية المهيمنة، يمكن القول بأن هذه الإيديولوجية لا تنقسم وفق قطبين متضادين ولكنها تضع الفرد في مركز الاهتمام الجوهري، وتفعيل دوره بوصفه الأساس حيث الأولوية للفرد على حساب الجماعة، أي أنها تبني الفرد بكونه الحقيقة اليقينية التي يركز عليها المجتمع، والتي من خلالها تفسر ملامح التميز والاختلاف وإبداع الفرد من عدمه أي أن الفردانية بمثابة العالم الذي يمتلك فيه الإنسان الفرد نفسه (ذاته) ويسيطر على الوجود المرتبط بالوعي المستقل والمعزز بالاستقلالية والحرية، وهذا ما يتعارض مع المجتمع الشبكي، ولا تعبر الفردانية أهمية للكلية الاجتماعية التي تنعدم فيها قيمة الفرد ودوره في المجتمع بوصفه عضوا فاعلا وتحيله إلى كائن مهمش، وبذلك تقتضي بأن تكون "الفعل الفردي في الاختيار والحرية والقصد لا يجري فقط على السطح، إنما يتصل بما هو أعمق حيث يجري داخل بنية ما تحكم الحياة المجتمعية"⁹.

إن الشخصنة والفردنة تحيلنا إلى التساؤل عن زوال المجتمع التقليدي وظهور المجتمع الشبكي، ومساهمة الفردانية بتربطها البنيوي في تشتيت المجتمعات والجماعات وكسر الروابط المجتمعية التقليدية. أمام التحولات العولمية المعاصرة، أصبح من الضروري طرح مثل هذه التساؤلات، وهذا المواكبة التحولات العميقة التي تعصف في جوف الهياكل المجتمعية، لذلك كان على المجتمع التقليدي أن يتشظى ويأخذ مكانه المجتمع المعولم بكل إنتظاماته الفردانية، أو بمعنى آخر ظهور المجتمع الشبكي ذو التقانة المتطورة، هذا المفهوم "نتج من مقارنة التأثيرات التقنية (تكنولوجيا الاتصال والمعلوماتية وغيرهما) في طبيعة الهياكل المجتمعية وآليات اشتغالها"¹⁰.

ولقد أفرز المجتمع الشبكي، علاقات جديدة قائمة على سياقات محورية، سميت بالعلاقات الشبكية، التي ظهرت بشكل واضح في الهياكل التي أخذت في التصدع، وفقدان تماسكها البنيوي، وفي ضوء هذا التحول تشكلت الفردانية الشبكية المتعالية على أي رابط مجتمعي.

"إن الإغلاء الفردي في التقنية الشبكية، يسطح التقنية ويفرغ التفاعل من مضامينه المجتمعية، ويخل بالطابع الجماهيري للإعلام الشبكي الذي تقوم إحدى وظائفه على حفظ التماسك في الإنتظام المجتمعي"¹¹، والأخير يتصدع تماسكه بالفردنة الشبكية لأنه يتشكل كموضوع وفق نماذج وتواصلات معرفية ومعلوماتية، حيث تنتظم شبكيا في الموقع السلبي لا في الموقع الإيجابي.

4.1. المجتمع الشبكي والتقانة

بما أن المجتمع الشبكي نشأ وترعرع في المجتمعات التي تحمل في جوفها التقانة المعقدة، وبخاصة الرقمية منها، فهو إذن مجتمع تقني، حيث يشكل امتدادا للمسارات التاريخية، والتي بدورها تكون لنا الإنسان التقني أو الإنسان الرقمي، إذ إن هذه الفكرة ظهرت في عصر الحداثة السائلة وترعرعت في ظل الحاسوب الرقمي الشبكي. "وإزاء ذلك، كان لا بد من أن تبرز خطابات متعددة حول علاقة التقانة بالمجتمع الحديث.. فخطاب الأدواتية يعتبر أن التقانات أدوات محايدة ووسائل لا جوهر لها، تتمخض عنها نتائج تتوقف تماما على الاستخدام الذي يخصصه لها بنو البشر"¹²، أي إنه يحصر التقانة في أدوات صممها الإنسان بفضل ملكته العقلية وإبداعه كوسائل لإتمام عدد من الغايات التي يراها ذات فائدة.

وفي نفس الطرح يؤكد خطاب الجوهريانية أنه خلف التنوع السطحي للوسائل التقنية وتطبيقاتها، تقبع الروح ماهية جوهرية للتقانة تستنبطها في أعماق الروح البشرية، فالتقانة كإنتظام كلي ليست عنصر حيادي بل تجسد الفردنة المخصوصة، ولذلك فإن انتشارها ليس بريء تماما، والتقنيات والوسائل التي تستخدمها مستنطقه من

نمط حياتنا، حيث تصبح في هذه الحالة الفاعل والمحرك في جل تحركاتنا الجسدية، وليس الجسدية الواقعية بل الجسدية الرقمية بكل تمفصلاتها، وهذا بفضل التقنية.

ما صرح به الخطاب الجوهري، تجاوزته البنائية الاجتماعية التي ترى أن الحتمية كميكانيزم أساسي لتشكيل التقنية، ليس صحيح فهناك تمازج بين التقنية والعلاقات الاجتماعية التي توجد داخل البناء الكلي، إنها تريد إنتاج إدخال حتمي لبعض المتغيرات مثل التاريخ، الثقافة، والإختلاف، التنافس، والسياسة في قوعدة التقنية.

أ. الزمان محل تضيق: تجعل التقنية الإعلامية في انصهار الزمان والمكان، "وتجعل المسافات ومرور الزمن أقصر وضيق على الأقل فيما يتعلق بنشاط التواصل"¹³؛ ويعتبر التضيق الزمكاني من أهم سمات المجتمع الحديث، حيث أصبحنا نسمع الكثير من العبارات التي تنم على التنظيم داخل اللاتنظيم مثل أنه أصبح العالم قرية صغيرة، وإن الحياة أصبحت سريعة، وهذا كله بفضل الإعلام الجديد، ويعود ذلك إلى بناء نواقل شبكية تساهم في نشر المعلومات الهائلة والرقمية التي تقرب المسافات الشاسعة، الأمر الذي جعل المكان ينتفي داخل منظومة الزمان، ويصبح الزمان في حد ذاته اللانزمان.

ب. زوال امتدادات المكان: كما انتفى الزمكان، وتحدد ضمن انتظامات مُشكلة، فالمكان أيضا معرض لمثل هذه التغيرات، ويتمدد في حقل ضيق، في ظل وسائل التواصل التي تصبح النافي للمكان، فوسائل التواصل القديمة مثل الهاتف، كانت تسمح بالتواصل بين الناس على الرغم من بعد المسافات، لكن لم يحدث في المسارات الكرونولوجية أن اتسمت عملية التواصل بهذا القدر من اليسر والتكلفة المنخفضة نسبيا، ولم يكن بمقدور الإنسان تناقل كم هائل من المعطيات والتحكم فيها مكانيا، ولم يسبق أن يكون تواصل جماهيري مقيد بحواجز مكانية.

5. المجتمع الشبكي والهوية

يعد مفهوم الهوية **Identité** من المفاهيم المركزية التي تسجل حضورها الدائم في مجالات علمية متعددة ولا سيما في مجال العلوم الإنسانية ذات الطابع الاجتماعي، وأصبح من أكثر المفاهيم تغلغلا في عمق حياتنا الثقافية والاجتماعية اليومية، وأصبح تعريف للهوية أمر صعب جدا، ولا ضرر أن نقول أن الهوية مفهوم لا يقبل تعريف، لأن كل تعريف هو هوية بذاته، "فالهوية مفهوم وجودي أنطولوجي وجودي يمتلك خاصية سحرية تؤهله للظهور في مختلف المقولات المعرفية، وهو يتمتع بدرجة عالية من العمومية والتجريد تفوق مختلف المفاهيم الأخرى المجانسة والمقابلة له"¹⁴، ومع ذلك كله فإن مفهوم الهوية يمتلك هالة كشفية لفهم العالم بما يشتمل عليه من كينونات الأنا والآخر.

لذا، فإن أي اقتراب من المفهوم تعريفا وتحديدا لا بد أن يؤخذ في الاعتبار دلالاته المتنوعة، اللغوية والتاريخية والفلسفية والسوسيولوجية، لكن سنسحب المفهوم السوسيولوجي للهوية و مساءلته في ظل التغيرات التي طرأت على إنتظامات المجتمع وظهور المجتمع ما بعد العولمي (المجتمع الشبكي).

من أجل فهم أفضل للهوية كمفهوم سوسيولوجي علينا الرجوع إلى ما جاء في كتابات علماء الاجتماع وخاصة ما طرحته لوسي بونيه **lucy baugnet**، حيث ترى بأن الهوية تشكل انتظاميات تتأثر بالتغيرات المجتمعية، ونجد الإشارة نفسها عند فيشر **fischer** عندما عرف الهوية "بأنها عملية استدخال **Intériorisation** للقيم السائدة التي لا تنفصل عن الأفكار والأيدولوجيات المهيمنة، ومن هنا فإن الهوية ينظر لها على أنها وعي مزيف"¹⁵، وعليه فإن دراسة الهوية تتخذ أهمية كبيرة في مجتمع الشبكات، وتعاظم مكانتها نظرا إلى الأوضاع المرتبطة بالمجتمع الشبكي، كما تعد هذه المكانة صفة للمقاومة المجتمعية.

إن ما يميز المجتمع الشبكي من فردنة ممنهجة، جعل من الهوية الجماعية تتخفى وراء التعبيرات القوية التي تتحدى العولمة العالمية لمصلحة الأفراد الثقافية وسيطرة الناس على حياتهم وبيئتهم، أي إن الهوية تهرب من وعاء تقليدي مجمعن إن صح التعبير، إلى فردنة مهيكلية، على هذا الأساس ميز كاستلز بين صنفين من الهوية: أ- **الهويات المشرعنة**: والتي تشكلها مؤسسات مهيمنة على تفاصيل الاجتماعي، حيث ترسم تعرجات وسياقات المجتمع المدني.

ب- **الهويات المقاومة**: تتشكل بصفة خاصة، لتهاجم الهوية المشرعنة داخل المجتمع، وتخرج من الإقصاء التي مارسه الهوية المشرعنة عليها.

لكن الهويات المشرعنة والمقاومة تنهار جراء العولمة الإقتصادية والدينامية التكنولوجية، وتظهر في السطح الهوية الذاتية، ومن مميزات اختيار الأفراد أسلوب حياتهم، وتتلاشى التقاليد وتكتسب الحياة طابع ديلكتيكي بين المحلي والعالمي، وتزداد حاجة الأفراد إلى المفاوضة في اختياراتهم؛ أمام هذه الاختيارات تصبح الهوية أمراً سائلاً، هذا الوضع أسسته الإنترنت وجعلت العلاقات الاجتماعية تزول، وتظهر الفردانية الشبكية، التي تتشكل بفعل الإنترنت، الأخيرة التي توفر الدعم المادي لنشرها باعتبارها الشكل المهيمن بين أشكال الروح المجتمعية.

1.5- الهوية في عالم الحقيقة

إن أصل الهوية في العالم الحقيقي، هو الحد الذي يبقى الأنا متمركزاً ومتمايزاً عن الآخر، وبواسطة هذا القانون الأنطولوجي يمكننا القول: أن الهوية الفردية مسألة مصطنعة ومتحولة لكونها تأسست في عالم جديد، حيث تحولت من بعدها الظاهر إلى الرقعي، إضافة إلى ذلك أصبح وجود الأفراد مستقل عن مبدأ الجماعة، هذا المبدأ يجعل الفرد يجدد التواصل كأصل مفتوح على الآخر، ويختزل الانتماء في إنتظام مركب.

2.5- الخصوصية الثقافية في المحك

إن الخصوصية الثقافية ليست امتيازاً أو اختياراً فكما أن الفرد لا يختار أبويه ولا زمن ولادته ولا شكله ولا لونه ولا أن يولد ولا في أي بيئة ينشأ فكذلك المجتمع لا يختار ثقافته التي هي إنتظام نفسي والتي به يتشكل عقله الجمعي ووجدانه وأخلاقه وقيمه واهتماماته.

إن المجتمع الذي يتكون من أفراد جاءوا للحياة على هذا النحو يجدون أنفسهم ضمن وسط ثقافي قائم، على الرغم من أن الخصوصية الثقافية تحدد مسارات الأفراد، إلا أنها لا تهرب من المسألة في ظل العولمة التي تسعى إلى التجانس التدريجي والقضاء على التمايزات الثقافية وتحويلها إلى ثقافة استهلاكية واحدة، تنبعث عن إمبراطوريات إعلامية متكاملة والعابرة للقوميات.

ورغم ما تنتجه العولمة من فضاءات ثقافية للتلاقح المعولم، إلا أن الخصوصية الثقافية تعبر بالمعنى السوسيولوجي عن النحن الوطنية التي تتجسد في الهوية المشتركة وتبعث على شعور سام لدى الفرد والجماعة على حد سواء.

خاتمة

في الأخير يمكن أن نقول بأن المجتمع الشبكي بما يملكه من منظومة هائلة، يشكل مرجعية صالحة للنظر في المجتمعات الغربية المشبعة بالحدثة وحتى ما بعد الحدثة، أما بالنسبة لمجتمعنا العربي الذي يقوى فيها التقليد على الحديث، فإن الأطروحة قد تصلح نسبياً لهذه المجتمعات على صعيدها التقني، بينما لا تصلح لفهم كينونة المجتمع التي تحجز حداتها في قفص تقنوي صلب، وكل محاولة لاستخدامها من أجل فهم كينونتها المجتمعية، لا تعدو أن تكون محاولة إسقاطية للمفهوم دون تكييف أو برمجة، وفي هذه الحالة يبتئس المفهوم ويصبح مغلف بإيديولوجيات، تجعل من الإنفلات أمر ضروري، وهذا ما تؤكده حال مفاهيم النهاية والمابعديات التي راجت في

العقد التسعينات من القرن العشرين، وافتتن بها الكثير من المثقفين، بحيث أصابها البؤس المعرفي حالما أسقطت على واقعنا الذي تفلت منها وشهد على صيرورتها حاشية باهتة في سجله التاريخي. كل هذه الإستراتيجيات المهيكلية في المجتمع الشبكي، تفتت الذات أو تفككها لجهة فصل الفرد عن الفعل المادي وإبعاده عن الإحساس بالمسؤولية المجتمعية والشخصية عن الآخرين، يحول الفردانية الشبكية إلى فردانية تنافسية عصابية ومهلوسة بضروب التقانة والمعدات التكنولوجية التي تبني فضاء رقمي هوياتي، وهذه الميكانيزمات ليست إلا التعبير عن سمة المجتمع الشبكي بصفته ضرورة عولمية، الأمر الذي جعل الفردانية الشبكية سمة من سمات المجتمع الشبكي.

قائمة المراجع

- 1- خليفة، عزمي. أجيال جديدة... ونماذج إدارة المستقبل. مصر: معهد التخطيط القومي. سيمينار مصر وإنجاز التنمية المستدام القضايا العاجلة، 16 إفريل 2019. ص. 05.
- 2- خليفة، عزمي. تحولات القومية والسلطة دراسة انعكاسات المجتمع الشبكي على الحكم وعلاقات السلطة. وحدة الدراسات المستقبلية، العدد 22. مصر، (د.س). ص. 18-20.
- 3- خليل، فؤاد. المجتمع، النظام، البنية في موضوع علم الاجتماع واشكاله. بيروت: دار الفارابي، 2008. ص. 74.
- 4- خليل، فؤاد. مباحث سوسيولوجية ديالكتيك المنهج والممارسة. بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، 2019. ص. 28.
- 5- علي، أسعد وطفة. إشكالية الهوية والانتماء في المجتمعات العربية. مجلة المستقبل العربي، العدد 272. لبنان. مارس 2002. ص. 100.
- 6- كمال، عبد اللطيف. المعرفي الأيديولوجي، الشبكي: تقاطعات ورهانات. قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012. ص. 17-18.
- 7- كلثوم، بيميمون. السياقات الثقافية الموجهة للهوية الرقمية في ضوء تحديات المجتمع الشبكي من التحول الافتراضي إلى الممارسة الواقعية. مجلة إضافات، العدد 33. قطر. 2016. ص. 80-81.
- 8- وف، ربودون، بوريكو. المعجم النقدي لعلم الاجتماع. ترجمة سليم حداد. بيروت: المؤسسة الجامعية للنشر، 2007. ص. 414.
- 9- Gustave, Nicolas Fisher. Les concepts fondamentaux de la psychologie sociale. Dunod: Paris. 1996. p.178.
- 10- Manuel, Gastel. A Network theory of power. International journal of communication. v05.2011. p-p.787.783.

الهوامش

- ¹ خليفة، عزمي. أجيال جديدة... ونماذج إدارة المستقبل. مصر: معهد التخطيط القومي. سيمينار مصر وإنجاز التنمية المستدام القضايا العاجلة، 16 إفريل 2019. ص. 05.
- ² خليفة، عزمي. تحولات القومية والسلطة دراسة انعكاسات المجتمع الشبكي على الحكم وعلاقات السلطة. وحدة الدراسات المستقبلية، العدد 22. مصر، (د.س). ص. 18-20.
- ³ نفس المرجع. ص. 27.
- ⁴ كمال، عبد اللطيف. المعرفي الأيديولوجي، الشبكي: تقاطعات ورهانات. قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012. ص. 17-18.
- ⁵ المرجع نفسه. ص. 19.
- ⁶ كلثوم، بيميمون. السياقات الثقافية الموجهة للهوية الرقمية في ضوء تحديات المجتمع الشبكي من التحول الافتراضي إلى الممارسة الواقعية. مجلة إضافات، العدد 33. قطر. 2016. ص. 80-81.
- ⁷ Manuel, Gastel. A Network theory of power. International journal of communication. v05.2011. p-p.787.783.
- ⁸ وف، ربودون، بوريكو. المعجم النقدي لعلم الاجتماع. ترجمة سليم حداد. بيروت: المؤسسة الجامعية للنشر، 2007. ص. 414.
- ⁹ خليل، فؤاد. المجتمع، النظام، البنية في موضوع علم الاجتماع واشكاله. بيروت: دار الفارابي، 2008. ص. 74.
- ¹⁰ خليل، فؤاد. مباحث سوسيولوجية ديالكتيك المنهج والممارسة. بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، 2019. ص. 28.
- ¹¹ المرجع نفسه. ص. 149.
- ¹² المرجع نفسه. ص. 121.

¹³ المرجع نفسه. ص. 122.

¹⁴ على، أسعد وطفة. إشكالية الهوية والانتماء في المجتمعات العربية. مجلة المستقبل العربي، العدد 272. لبنان. مارس 2002. ص. 100.

¹⁵ Gustave, Nicolas Fisher. Le concept fondamental de la psychologie sociale. Dunod: Paris. 1996. p.178.